أغراض هذا البحث، اجتزىء بالإشارة العابرة، إلى الإرهاصات التاريخية، التي تعرض لها الوطن العربي في عصره الحديث؛ فقد خضعت معظم بلدانه للحكم التركي طيلة قرون أربعة انتهت بالحرب العالمية الأولى، وانحسار السلطة التركية، التي كان من أسوأ آثارها على الوطن العربي سياسة التجهيل المتعمد، التي انتهجها السلاطين الأتراك نحو العرب؛ مما أدّى إلى إشاعة الأمية في أقاليم الوطن العربي، حتى بلغت نسبتها حوالي ١٠٠٪ بين الإناث وأكثر من ٩٠٪ بين الذكور، وآية ذلك ما يرويه أبناؤنا من أن الرسالة كانت ترد الرجل من أهل القرية، فيحملها ويدور بها في عدد من القرى المجاورة، باحثاً عمَّن يقرؤها له، ويكتب له جواباً عليها.

وبالطبع، ما إن رحل الأتراك عن الأرض العربية في أعقاب هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، حتى سارعت دول أوروبا الاستعمارية إلى اقتسام الغنائم فيما بينها، فوضعت أيديها على بلدان الوطن العربي، وأخضعته، بمقدراته المادية والبشرية، لخدمة مصالحها هي. وعانت البلدان العربية ما عانته من تلك السيطرة الأجنبية، ومن جملته عدم تمكنها من تخطيط التربية والتعليم فيها، لمصلحتها الوطنية، ومصلحة أبنائها، لأن المستعمر ما كان ليتيح لها مثل تلك الفرصة، وهو الذي كان يخطط للبقاء فيها إلى أطول أجل ممكن، لكي ينهب خيراتها، ويستغل ثرواتها، وأسواقها، ومواقعها. ولذلك فإن البلدان العربية كافحت كفاحاً مريراً، هدرت فيه الموارد البشرية والمادية، في سبيل طرد المستعمرين الدخلاء، وتحقيق الاستقلال والسيادة الوطنية. وما إن تمّ لها ذلك، حتى بدأت تكافح في سبيل تثبيت استقلالها واستكماله من ناحية، وإصلاح نظمها التعليمية وتطويرها من ناحية أخرى، تمهيداً للنهوض بأبنائها وبمجتمعاتها، واستعداداً للانطلاق في طريق التنمية، لكي تتمكن من مسايرة ركب الحضارة العالمية الحالية، ومن الإسهام في صنع حضارة المستقبل(٤٤).

لكن الاستعمار لم يستسلم بسهولة، فقد ظلّ يحاول بسط نفوذه على البلدان العربية بصورة أو بأخرى؛ فهو يحمل بعضها على السير في ركابه بالتخويف، ويحمل البعض الآخر على المحمل ذاته بالإغراء، وهكذا. وأسوأ من التخويف والإغراء، أن الاستعمار الغربي وزعيمته الولايات المتحدة الأميركية، بالتحالف مع الصهيونية العالمية، زرع دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي، في فلسطين، التي هي الجسر الذي يربط شرق الوطن العربي بغربه. وهو لم يكتف بزراعتها، بل ظل يرعاها، ويتعهدها، ويمدّها بالمال والرجال والسلاح، ويحركها كلما دعت الحاجة لضرب البلدان العربية المجاورة، بهدف استنزاف مواردها البشرية والاقتصادية، حتى لا تتمكن من الخروج من دائرة التخلف، وتظل بالتالي في مركز التابع الذي لا بد أن يدور في فلك الإمبريالية الغربية وسيدتها الولايات المتحدة الأميركية. وأحدث مثالٍ على هذا، هو ما حدث في السنتين الماضيتين لنظام الرئيس محمد أنور السادات، رئيس جمهورية مصر العربية. ولن أقف كثيراً عند هذا الموضوع الآن، بل أرجىء القول فيه إلى فقرة لاحقة خاصة بالتنمية الفلسطينية.

وليس الاستعمار وإسرائيل، هما العائقين الوحيدين للتنمية العربية، فهنالك عوائق أساسية أخرى، منها: